لبكي

من اعماق الجبل

الى عائدة ، رفيقـــة العمر ،
هذه الاساطير من اعماق بلادي ،
اعتراف الخصب بفضل الينبوع .

صلاح

للمؤلف

ارجوحة القمر

مواعيد

398.2
L11mA
C.1

صلاح لبكي

من أعماق الجبل

مع ستة رسوم

بريشة قيصر الجميّل

منشورات دار المكشوف

بيروت – لبنان ، ١٩٤٥

الطبعة الاولى ، ١٩٤٥

جميع الحقوق محفوظة

مقدمة

ما احوج الانسان الى معرفة اساطيره ليدرك دخيلة ذاته ، ويتبين اصول ما يعيش فيها من عقائد واوهام ، لها سلطان خفي عليه ، تقوده برغمه الى عمل شيء او ترك آخر . والى التفاؤل بشيء والاقبال عليه . او الى التشاؤم بغيره والفرار منه . وهو في هذا وذاك لا يدري حقيقة ما يقوده الى ان يجد الخير هنا فيرغب فيه ، والشر هناك فينفر منه . وانما يعلم انه تلقى هذه العقائد من ذويه ومجتمعه فتماسكت جذورها في نفسه حتى اتصلت بعقائده الدينية فاصبحت معها كلاً شاملاً لحقائق ايمانه ، يستعين باوهامه التي يرتاح اليها كما يستعين بالدين . ويستعين الدين على ما يخشى منها ، كما يستعين عليها اوهاماً من جنسها فيفزع الى الطلاسم والتعويذات . وربما لا يجهل انه في استسلامه الى تلك الاوهام يأتي اعمالاً ينكرها الدين ويحرّمها على ابنائه .

ومع ذلك يجد نفسه ضعيفاً امامها ، قصير اليد لا قِبل له برد هذه الارباب التي تَحدَّر عليه سلطانها من تراث الاجيال المتعاقبة ، فاخضعته لاحكامها بما فيها من حيوية نابضة بالتقليد والحديث المأثور ، بعد ان حضنتها ازمنة بعيدة ، وبلورتها مخيلات متفاوتة ، قد تعود الى عهد الشرك والوثنية ، او الى عصور الاديان المنزلة وما نشأ على جنباتها من اساطير اضيفت الى القديسين والاخيار والملائك . والى الشياطين والجن والعفاريت . وهي على اختلاف ينابيعها جديرة بالحفظ والعناية . فالشعب الذي اضاع اساطيره ، جهل دخيلة ذاته ، واضاع جانباً عظيماً من تاريخه . هذا التاريخ الذي نستمع اليه على ابواب الاسطورة ، كما يقول فكتور هوغو ، يحتل اليوم مقاماً رفيعاً في معرفة احوال الامم ، واستكشاف بذور الفكر البشري . فان الاساطير منها ما ينشأ في حضن المجتمع فيحمل في تضاعيفه شتى عقائده وآرائه . ومنها ما يهاجر اليه مع الشعوب الغريبة او مع التجار والسياح والجنود الراجعة من الحرب ، فلا يلبث ، بمرور الزمن ، ان يكتسب حقوق المستوطن فيظهر في حلل جديدة تلونها طبيعة الارض وعقلية ابنائها . وقديماً قيل ان فلسفة اليونان استُنبطت اصولها من اساطيرهم ، وان تكن منابتها الاولى زراعة الشرق في حقولٍ فينيقية وعبرانية ومصرية ، وآرية هندية . فلذلك يصح ان تتخذ الاسطورة فكرة فلسفية تقود الى ما بعد الطبيعة بابحاثها الالهية . والى محاولة

تفسير النظام العالمي لاشتمالها على الارباب المؤلهة من القوى الطبيعية . والى معرفة الخير والجمال بما فيها من تأليه الفضائل الاخلاقية كالحكمة والعدل والجمال . وكان الرواقيون يقولون بانهم وجدوا المبادىء العالمية في الاساطير . وذهب الاسكندريون هذا المذهب فارجعوا اصل الفلسفة الى تعليم الاسرار الاولى في مصر . وقال افلاطون في « غورجياس » ان الاساطير القديمة تتضمن عوامل الحقائق الكبرى . وهو في « الجمهورية » يؤثر ان يبدأ بها قبل غيرها في تعليم الاحداث ، على ان مغزاها حقيقي . والاحداث من غريزتهم يميلون الى هذا النوع من القصص الوهمي ، لانه يغذي مخيلتهم ، ويستثير شواعرهم الدقيقة . بيد ان افلاطون لم يسمح بان يلقنوا جميع انواع الاساطير كخرافات هوميروس وهزيود ، فان هذين الشاعرين شوها جمال الارباب والابطال بما اضافا اليهم من صفات مذمومة كالمكر والخيانة ، والاستهتار بالشهوات . فمثل هذه الاساطير يسيء الى عقيدة الاحداث في الآلهة واعاظم الرجال ، بخلاف التي تصور الالوهية خيراً وسعادة للبشر ، وتظهر البطولة باسمى معانيها .

وكأن صاحب « من اعماق الجبل » وقعت في قلبه تعاليم افلاطون فجاءت اساطيره على الجملة مشبعة بفكرة الخير والجمال ، تزهر منها انوار لبنان حاملة الى العالم القديم رسالة الحضارة والروح والحب والسلام . فـ« النغم التائه » يرمز الى الحب الشامل يفيض به قلب لبنان فيزرع الخصب ،

وينبت العمران ، وتنبعث الانسانية من تلك النفس المنفتحة على حد ما يسميها « برغسن » ويعبر عنها ابدع تعبير . فاذا تاه النغم ، وتكاثفت المادة على الروح ، ذهب الخير من الناس ، وساد الشر والتحاسد والخراب . ولكن النغم يتيه ولا يبيد فلا بد له من عودة يتجدد فيها الصراع بين المادة والروح لان المادة لا تنتقل من القوة الى الفعل ، من النقص الى الكمال ، الا بحرك من الروح ، فهي لا غنية لها عنه وان تمردت عليه . وفي اسطورة « الشاعر والشيطان » نلمس حاجة المادة الى الروح ، حاجة الظلام الى النور ، فقد عاد النغم التائه من غربته وحط قراره في قلب شاعر من لبنان ، يغني اغنية النور ، ويعرض عن زخارف الشيطان : « فيهن الشكل والتراب وليس فيهن الروح . » ويجد الرمزية والتأثرية والتصوير المكعب من عمل الشيطان ، فاجتنبوه ! فالمدنية التي تقوم على المادة وحدها هي مدنية جوفاء : « لا زاوية فيها للروح وللحب المتصلين بينبوع النور الازلي . » أليس المسيح روحاً محيياً ، وحباً شاملاً ، ونوراً ازلياً ؟ فالروح يحيا الانسان لا بالجسم ، وبالحب لا بالمادة تخف آلام البشر ، وبالنور يهتدي الحائر لا بالظلام . فرسالة لبنان روح وحب ونور . واذا كانت المادة ضرورية لتخطيط الجسم وتشكيله ، فان الروح التي تتحد بالجسد وتحييه لا تدعه يربي عليها بجسمانيته ، فيقودها الى الشر ويستخدمها في شهواته . بل تغالب نزعات

المادة مستبسلة حتى تنتصر عليها فتسير بها الى الخير والفضيلة ، كما انتصرت لبنانة في « بعل مرقد » فقمعت ثورة مادينها بعد جهاد أليم يذكرنا جهاد القديسين حين تساورهم التجارب . وقامت ترقص وبعل مرقد يعزف ويغني لها « اغنية الحب الخالد » فارتفع بها الرقص عن ظلمة المادة الكثيفة ، فاذا هي : « خصلة من نور تتعالى الى ما وراء النجوم . » وكثير من الشعوب القديمة كانوا يؤمنون بقداسة الرقص ، وانه يُدبّ الحياة في الارض فينمو الزرع ، ويطيب الحصاد . وكان الهنود خصوصاً يرون فيه فألاً حسناً لاخصاب العروسين .

فعلى هذا النمط الخيّر تجري اساطير « من اعماق الجبل » متغنية بحضارة لبنان وجمال ارضه وسمائه ، متصلة بقصص الماضين وعقائدهم دون ان تفقد خاصة الاختراع . فقد اعطى صلاح لبكي لنفسه الحرية في اخراجها وتوجيهها ، فجاءت صنعاً جديداً تطفو عليه روعة القديم وجلاله . وربما حوت الاسطورة اصول اخبار وخرافات مختلفة المجاري ، لبنانية ومهاجرة ، فيجمع بعضها الى بعض ، ثم يشق لها طريقاً غير طريقها القديم . فاسطورة « بعل مرقد » تذكرنا اوائلها باسطورة بغماليون ، فقد نحت بعل لبنانة بازميله ، ونفخ فيها الروح ، واحبها وتزوجها ، كما نحت بغماليون بازميله تمثال فتاة جميلة فتعشقها ثم تزوجها بعد ان بعثت فينيس فيها الحياة . على ان اسطورة صلاح لبكي لا تلبث ان تفارق الاسطورة

مسيحية الاسطورة عند صلاح -

اليونانية لتتحي وجهة لبنانية ، مسيحية لا وثنية . وكذلك اسطورة « النغم التائه » فانها تشتمل على خرافة ادونيس وعشتروت ، وعلى خبر قاين وهابيل . كلاهما مرتبط بالآخر ، وكلاهما يسيران في طريق جديد . فنحن نعلم من التوراة ان الرب قبل تقدمة هابيل ، والى تقدمة قاين لم ينظر . فشق على هذا اعراض الرب عن قربانه ، فوثب على اخيه فاغتاله في الصحراء . ويفصّل الطبري هذا الحادث فيخبرنا ان حواء كانت لا تحمل الا توأمين ذكراً وانثى . وكان الذكر يتزوج من شاء من اخواته الا توأمته ، فانها كانت لا تحل له . فرغب هابيل في توأمة قاين لما هي عليه من الجمال . فضن قاين بتوأمته على اخيه ، وارادها لنفسه . فنهاه آدم ، فابى ان يطيعه . فاشار عليه ابوه بان يقدم قرباناً للرب ، وان يقدم هابيل قربانه ، فايهما قبل الرب تقدمته ، كان احق باخته . فقدم كلاهما تقدمة للرب ، فنزلت نار بيضاء من السماء ، فاكلت قربان هابيل دلالة على قبوله ، وتركت قربان قاين فلم تأكله . فغضب قاين وأمضه ان يتخلى عن توأمته ، فقتل اخاه . اما صاحب « من اعماق الجبل » فيجعل من عداء قاين لاخيه صراعاً بين الشر والخير ، فقد كان لهابيل صوت رخيم عذب ، فاذا قدم قرباناً للرب سبح له مرتلاً : « فاصغت الارض والسماء وهرعت الطيـــور والاسود من كل صوب . » وكان صوت قاين كريهاً منكراً فاذا قرّب للرب وسبح : « غامت السماء

وتجهمت الارض ، واقلعت الطيور ، وانصرفت الاسود . » فحسد قاين هابيل حتى كاد يموت حسداً ، وزُيّن اليه ان يعض عنق اخيه ليمتص النغم من عنقه . فمات هابيل مختنقاً ولكن النغم افلت وتاه حتى استقر في حنجرة آدونيس ، يفيض على لبنان عاطفة الحب الشامل ، ويبدع مدنية بيبلوس وصيدون وصور . ثم مات قاين : « فنبذت السماء روحه ، ولفظتها جهنم . فحلت في جسد خنزير غريب لم يكن للبنان عهد بمثله . وبينما آدونيس يؤدي رسالة الحضارة ، ويوحّد بانغامه القلوب على الحب وعلى الخير ، فاجأه الخنزير وانقض عليه وصرعه . » فتجددت مأساة هابيل بتغلب الشر على الخير ، وافلت النغم ثانية ، وتاه ليجد له مستقراً . واذا تغلب الشر على الخير يتيه النغم ، الا انه لا يموت .

وهذا النغم جدير بان يستوقفنا في قصة قاين وهابيل . فاي فكرة تحركت في اعماق ضمير الكاتب ، فاوحت اليه ان يبني اسطورته على الغناء مخالفاً فيها ما حدثت به التوراة والاخبار ؟ ولعل هذه الفكرة تعيش في باطن كل منا ، بل لعلنا نتكلم بها دون ان نأبه لحقيقة معناها ، او نحاول التنقيب عن اصلها ونشوئها . فكثيراً ما نسمع غناء خشناً مزعجاً ، فنتأذى من وقعه في آذاننا ، فنتطق عفواً : هذا صوت قايني ! نشبه صوتاً بصوت ولا نعلم سبب هذا التشبيه . وقاين وقايين وقين اسماء لمسمى واحد كما يقول الطبري . فكيف نشأت هذه الصورة المعنوية في اذهاننا

وليس في التوراة والاخبار ما يهدينا اليها ؟ أتراها متصلة الاسباب باسطورة قديمة انقطعت عنا ، وخلصت الينا هذه البقية منها ؟ ولا يبعد ان تكون التوراة اساساً لتلك الاسطورة بما فيها من علاقة قاين بالصوت والغناء . فان الكتاب المقدس يخبرنا ان قاين هو جد الحدادين وجد اصحاب اللهو والعزف والغناء . فمن سلالته يوبل بن لامك ابو كل عازف بالكنارة والمزمار . واخوه توبل قاين اول صيقل لجميع المصنوعات النحاسية والحديدية . فنحن امام صناعات صوتية ترجع باصلها الى قاين ، وهي الحدادة والعزف والغناء . يضاف الى ذلك ان اسم قاين نفسه مرتبط المعنى بهذه الصناعات . فلو عدنا الى مادته في المعاجم العربية لوجدنا ان القين هو العبد والحداد ، وان القينة هي الامة المغنية . ويسمى مقيّناً من يزيّن القيان ويدربهن .

ومعلوم ان العربية والعبرانية شقيقتان لامٍ سامية بائدة ، فلا بدع ان يقع بينهما تشابه في الاوضاع اللفظية ومختلف مدلولاتها . اوليس غريباً ان يكون هابيل المقتول يعني الموت والثكل في مادته العربية ؟ يقال : هبلته امه اي ثكلته .

وعلى هذا فقد يجوز ان تكون الاسطورة القديمة متألفة عناصرها من لعنة الله لقاين ، ومن اصوات مطارق الحدادين متحدة باصوات المغنين ، فاخرجت لقاين صوتاً منكراً . ثم ما لبثت ان انقطعت مع العصور ،

وبقي الصوت المزعج تائهاً متنقلاً حتى بلغ الينا ، فاخذناه ارثاً عن الماضين لا ندري له سبباً . فجاء صلاح لبكي ينبهنا اليه في اسطورته . ولطالما كانت الاساطير مفسرة لكثير من العادات والعقائد والاحكام عند الشعوب .

ونرى ان اضافة الصوت الجميل الى هابيل لا تقتصر على المقابلة المجردة بينه وبين أخيه ، بل تتعداها الى ابعد من ذلك . فقد كان هابيل راعي غنم ، كما تقول التوراة . وكائن تغنى الشعراء بصوت الراعي وشبابته وهو يسوق القطعان في الاودية والجبال . وللادب اللبناني خصوصاً آصرة عريقة على الراعي المغني ، فمن الطبيعي ان تحيا بذورها في نفس صاحب « من اعماق الجبل » وهو شاعر من لبنان ، فيُلقي السحر في حنجرة هابيل ، وتغتبط سريرته اذ سقط زرعه في وادٍ غير جديب .

ونحن وان خصصنا بالذكر ثلاث اساطير : النغم التائه ، والشاعر والشيطان ، وبعل مرقد ، فلا لانها استبدت بالروعة دون سواها ، بل لانها سارت متضافرة في اتجاه بحثنا ، مع ان اخواتها الباقيات لا تقل عنها جمالاً واغراء . وفيها ايضاً لبنان بحضارته وطبيعته . وفيها فكرة الخير والسعادة كما ارادها افلاطون .

بطرس البستاني

النغم النائم

عندما قتل قايين هابيل ، لم يفعل ، كما ظن المؤرخون ، لأن الرب قبل قربان هابيل ولم يقبل قربانه . فقد كان بوسع قايين ان يقدم للرب قرباناً من خير ما تنبت الارض وهي بعد في اول عهدها بالخصب فيقبله الرب . ان دوافع الاثم الاول لأعلق بالنفس البشرية مما توهم المؤرخون .

كان الاخوان يجتمعان كل اصيل بعد ان يفرغا من اعمالهما ، فيقربان القرابين للرب وينشدان في تسبيحه الاناشيد . فكان هابيل اذا غنى اصغت الارض والسماء وهرعت الطيور والاسود من كل حدب ومن كل افق تسمع الى اطرب نغم عرفته الارض والسماء . فاذا ارتفع صوت قايين غامت السماء وتجهمت الارض واقلعت الطيور وانصرفت الاسود مبتعدة مزمجرة .

وكان قايين يموت كل يوم حسداً ، ويقرب القرابين طالباً من الرب ان يهبه صوتاً رخيماً عذباً كصوت اخيه . ولما طال الامر ولم يظفر اقبلت عليه بنت تلك الحية التي وسوست لأمه ما وسوست واغرتها بما اغرت ، فقالت له : ما بالك تستنفد كل ما تجنيه يداك قرابين لله ؟ ان النغم الذي يرتفع من حنجرة هابيل واحد احد في الارض والسماء ، والرب الاله لا يستطيع ان يهبك اياه الا ان يمنعه عن اخيك فتدبر انت امرك .

وفي اصيل اليوم التالي بينا هابيل يُرقص الافلاك على نغمه ، جاش الحسد في صدر قايين فانقض عليه وعضه في عنقه يريد ان يمتص منها اصول النغم ، فصرع المغني ، واما النغم فقد افلت .

وظل هذا النغم تائهاً هائماً على وجهه . فاذا مر ظله على فم « اورفه » روّض « اورفه » السباع على وقع انغامه ، وارقص النبات وحرك الجوامد . واذا لامس صداه اوتار العود بيد

« امفيون » هبت الحجارة مطاويع من مقالعها وارتفعت مدناً رائعة الحسن . واليشعيا نفسه ما كان يفيض بالنبوءات الا اذا احسه مرفرفاً من حوله .

غير ان هذا النغم ما كان ليجد له في الارض وما فوقها مقراً . فتاه طويلاً حتى مر يوماً بـ« افقا » فاذا عند النبع فتى من لبنان يفيض قلبه حباً بالسماء وحباً بروعة المكان . فحوم وحل فيه . واحس ادونيس انه صار شخصاً آخر . احس انه صار نغماً منسجماً . فاذا سار سارت الطير والسباع واشجار الارز في موكبه عالقة بوقع اقدامه . والتقى ذات صباح بعشتروت ، تلك الصبية التي طالما حن اليها قلبه . وما ان وضع يده على كتفها حتى جلبيها الشعاع بجلبابه وجرت الرقة في اعطافها . فراعه ما رأى وفر هارباً في الجبال ودنيوات لبنان تتبعه وتكتنفه . وشاع الخبر فهب الشباب وهبت الصبايا من انحاء الجبل بالهدايا ،

هازجين راقصين ميممين « افقا » علهم يحظون بما حظيت بـه عشتروت او علهم يرون ويسمعون ، فترتفع نفوسهم الى ابعد من هذه الشمس وتلك النجوم .

وكانوا يسمعون وكانوا يرون وكانت نفوسهم ترتفع وقلوبهم تهتز بعاطفة من الحب الشامل . واذا هم ينعمون بمدنيـة ما عرفت الدنيا مثلها من قبل . واذا بيبلوس واذا صيدون واذا صور تحمل الى اقاصي المعمور ، الى الذين لم يروا والى الذين لم يسمعوا فيضاً من خيراتها ، وفيضاً من حبها ، وفيضاً من انسانيتها .

غير ان روح قايين التي نبذتها السماء ولفظتها جهنم حلت في جسد خنزير غريب لم يكن للبنان عهد بمثله . وبينا ادونيس يؤدي يوماً رسالة الحضارة ويوحد بانغـامه القلوب على الحب وعلى الخير فاجأه الخنزير وانقض عليه وصرعه .

ولم يفد لبنان بعد ذلك ان نبع افقا كان يتحول كل سنة

دماً صبيباً حزناً على ادونيس ، وان عشتروت ماتت جزعاً عليه ، وان الصبايا صرن يصعدن باكيات نائحات الى افقا يمرغن الجباه في تراب الارض المقدسة . فقد تهدمت الهياكل وسقطت المدن وتسلط الفاتحون على البلاد وعم الدمار ولم يسلم من ذلك العهد الميمون غير ذكره وغير اللوعة عليه يتوارثها الخلف عن السلف ويتحدث بمعجزاته العلماء .

اما النغم فقد خلد بعد ذلك في طائر يعشش في صدر الشمس حيناً وفي فم الميزاب احياناً . فاذا رفرف فيما هو يهيم في فضائه ، فوق وادي النيل ، تدفق النهر واخصبت الارض وارتفعت الاهرام وامرعت الحضارة .

غير انه لسبب لا يزال مجهولاً تخلى النغم عن الطائر وتلبث بالجبل فغدا الناس يحسون نحوه بعواطف تختلف بين الحب والاجلال فيجعلون مرة من وجه الحجر الهاً ، ومن حرمون

الهاً ، ثم يغمرهم هذا الانسجام الشائع في انحاء لبنان ، فاذا هو « من مرمى الثلج الى فقش الموج » الـه في نظر القوم يحفظهم ويغدق لهم ويروي ما في نفوسهم من شوق الى الجمال .

وتشهد افقـا كل يوم ان النغم لا يزال متحفزاً ليحل من جديد في قلب فتى من لبنان يتوفر له ما توفر لادونيس من فطرة طيبة وشغف بالجمال . وحينئذ يغمر الحب بفيضه الدنيا ويغلب الحديدَ ويغلب النارَ ، ويعود الى الجبل سالف عهده من العز .

طليوه وسجين

هذا عتيق التُقط صغيراً في عشه ونشأ في هذا القفص الخشبي وتلقن الغناء من اشهر عتيق في الجوار . وكانت الايام والليالي تنقضي وهو ناعم البـال ينظر من خلال قضبان قفصه فيقع بصره على بستان صاحبه . ثم اذا سرح البصر بعيداً لا يرى من الدنيا غير هذا الجبل القائم هنـاك في الناحية الثانية على ضفة الوادي .

ولشد ما كان يعجب عندما يسمع من بعيد تجاوب غنـاء الحساسين في الحقل ، او عندما يرى حسوناً برياً يقع من السماء على الشبوق المنتصب في طرف البستان .

اين تعيش هذه الحساسين ، ومن اين تأتي بالقنب ، ومن ترى يقدم لها قدح الماء ؟

وذات صباح بكر صاحب العتيق فعلق القفص ومضى لشأنه .

وما هي الا ان وقع حسون على رأس الشبوق .

ـ مرحباً ، عم صباحاً !

ـ اهلاً وسهلاً ! من اين انت آتٍ ؟ لقد سرني كثيراً ان رأيتك تسقط من ايام على هذا الشبوق فترسل اغنية ثم تذهب عندما ترى صديقي صاحب الدار . قل لي لماذا ذهبت ؟

ـ بل كيف صرت انت الى هـذه النهاية ومن وضعك في هذا السجن ؟

ـ في هذا السجن ! اين ترى السجن ؟

ـ اين اراه ؟ وما هو هذا المكان الذي تعيش فيه ، أليس هو سجناً ؟

ـ من قال لك ذلك ؟ هذا هو بيتي لا اذكر الا اني وجدت

فيه منذ ما وجدت . انه جميل وانا فيه انعم بجميع ما احتاج اليه من طعام وماء . واغني على هواي ، ساعة ما اشاء . كيف ! افليس لك انت منزل جميل مثله ؟

— كلا .

— مسكين انت ! ومن يقدم لك القنب والماء ؟

— انا لست بحاجة ان يقدمهما لي احد .

— افليس عندك قدح مثل هذا تشرب منه ؟

— كلا .

— مسكين انت ! ان قلبي لينفطر الماً على مصيرك ! أوما لك صديق يملك مثل بستان صديقي ؟

— كلا .

— ما اتعسك ! كيف تشرق عليك اذن هذه الشمس ؟

— انها تشرق ...

— عجباً لها ولك!

— عجباً!

— انني حزين من اجلك. أفتحب ان تكون معي وان يكون لك منزل مثل منزلي وبستان صديق مثل بستان صديقي؟ دعك عندي.

فارتفع حسون الحقل في الهواء ورسم في الفضاء دائرة كبيرة، ثم عاد فنزل من جديد على اعلى غصن في الشبوق وارسل أغنية فيها انين من خرير السواقي، والوان من شعاع الاصيل، ورائحة من زهور الحقل، وعمق من اغوار السماء.

فبهت حسون القفص وقال:

— من علمك هذا الغناء؟

— علمنيه الفضاء الرحب والربيع الطلق. علمتنيه الينابيع والسفوح والغابات، وترنمت به على مسمعي اعالي الجبال والسهول

والاوداء . علمنيه بيتي انا .

— وهل يحسن غيرك هذا الغناء ؟

— جميع الحساسين .

— وهل لهم كما لك انت بيت فيه جبال وسهول وسفوح وينابيع ؟ وهل هذه الاشياء التي ذكرت تعلمهم هم ايضاً الغناء ؟

— ان بيتي هو بيتنا جميعاً ، هو بيتك ايضاً .

— انك لتهزأ مني وتذكر لي اشياء لا وجود لها .

— ماذا ! افلا تعرف الفضاء ؟

— كلا ، فما هو الفضاء ؟

— انظر الى فوق من خلال قضبان سجنك ، ان بصرك ليظل دائم الانطلاق ، هذا هو الفضاء ، مسرحنا نحن اهل الجناح ، ومسرح الطيب والنسيم ، مسرح النور ، مجال الشمس والقمر والنجوم . نطير حتى نتعب ولا نصل الى آخر الفضاء . ويسري

الطيب حتى يتجاوز الغمام ولا ينتهي الى حد . ويسيل الشعاع ولا يعرف احد الى اين ينفذ الشعاع . الفضاء قرار اغانينا وما ابعد واعمق هذا القرار ! انا لا اعرف ابعد غوراً منه غير فؤادي عندما تقف الحسونة على شمخ البلوطة في اوائل الصيف .

ـ لا افهم ما تقول !

ـ وهل تعرف الينابيع ؟ انك لا تعرف الينابيع . عندما ينظر الجبل الى السنابل والازاهير ايام القيظ تنطلق المياه من صدره فتخضوضر السهول ، وينبت العشب في السفوح ، وتجري المياه مرنمة بيضاء نقية فوق الحصى . ونشرب نحن . نشرب اغنية الماء وهيام الجبل . ونزف نحن فوق الزهور فتعطر اطيابها حناجرنا . ثم نأوي الى الغابات . إنك لا تعرف ما هي الغابات ، ولا ما هي الظلال ، ولا ما هو تمايل الغصون وحفيفها . الغابات بما فيها من ظلال وحفيف وتمايل هي الف نغم في نغم ، والف صلاة

في صلاة ، وراحة جامعة . حركة دائمة وغناء دائم . هي عالمنا في الليالي تنسكب روحها في صدورنا وتنتشر مع اغانينا .

فتعال ، تعـال معي !

ـــ اف لك ، ما اخالك الا محدثي عن عالم لا وجود له الا في خيالك . ان هو الا شوق في اعماقك تتصوره حقيقة ، ورغبـة تحسبها واقعـة . ولو ان لك مثل ما لي وكان عندك مثل ما عندي : بيت وقنب وفير ، وقدح ماء ، وصديق يعتني بك ، لما كان لهذه الاشياء التي سميتها فضاء وينابيع وغابات وسهولاً وجود ، فأقم انت عندي . اني لأبعد بالواقع منك مراساً .

فاطرق حسون البر ثم نظر الى صاحب القفص وقال :

ـــ أفليس لك عينـان واذنان ؟

ـــ بلى ، ولكنك انت ترى بعينيك ما لا وجود له وتسمع باذنيك اصداء ما يختلج بصدرك . ان جوعك وعطشك هو الذي

يمثل لك هذه الصور .

فضحك حسون البر طويلًا وانطلق في الفضاء يملأ عينيه بالنور والالوان ، واذنيه بالاغاني المتصاعدة من كل حدب ، ويشم مواكب الطيب الهائمة عند الافق .

ومرت الايام والليالي واتيح لعصفور القفص ان ينطلق يوماً فامعن طيراناً في فضاء هاله منه انه لم يصل فيه الى حد ، وسقط على غاب ارتاع لعظمته ، فلم ينعم منه بظلال ولم يأنس الى حفيف . ومر بينبوع فما استساغ مذاق مائه ، وقفل في المساء راجعاً الى قفصه

الشاعر والشيطان

كان الشاعر يترك المدينة في فترات متقطعة من الزمن ويعود الى قريته القائمة في السفح المطل على « الجعماني » ، ويقضي ايامه في الجبل متنقلاً وحده في الحقول المجاورة للقرية يأنس بالطبيعة اينـاس غيره بالنـاس ، ويحس ان نفسه تكتنز جمال الصخور الجرداء وعطـور الازاهير وهـواء الصنـوبر والنسمات النقيـة المتدحرجة من اعالي الجبال المعممة بالثلج .

وكان يستهويه ، اكثر ما يستهويه ، مكان هنالك في الوادي يقال له البربيصة ذَكَرَتْ له حكايات جدته وهو بعد صغير انـه كان آهلاً بالجن ، يتنقلون بـين اجباب البربيص ، يهزأون من المارة ويروّعونهم . وان قبائل الجن هذه ترحلت بعد ان شيدت الكنيسة وراح صوت الجرس يدوي صباحاً ومساء في الوادي .

غير ان نساء القرية ما زلن حتى اليوم يشددن على اولادهن الاّ يتوغلوا في البربيصة اذا ما ذهبوا لنزهة او للعب ، ويضرعن الى شبابهن ورجالهن ان يجتنبوا المرور ليلاً في تلك البقعة الملعونة . ومن يدري ، لعل بعض الجن ما يزالون يحنون الى هذا الوطن فيعودوا او يعود منهم واحد اليه ساعة التخلي . أليس ان الاب يعقوب شاهد من زمن غير بعيد في محل من هنالك جنية ملتهبة الرأس تقيم في جب من السنديان فهزأت منه ، وكادت تخرجه عن رصانته لولا انه استعان عليها بالصليب ؟

والجبل في مقابل البربيصة ينبثق من الضفة الثانية على شكل حائط جبار كأن ايدي الجن قد رفعته من حجر واحد ، وحفرت في وسطه مغارة توصل اليها طريق ضيقة منحوتة في الصخر يكاد لا يحسن سلوكها الا من يقلد الجن مشياً وخفة . في تلك المغارة المتسربة بعيداً تحت الارض من ناحية الشرق

كان يجلس الشاعر ، يرتل قصائده ويسبح بعد ان تستحم نفسه بالجمال المتدفق من روعة الاساطير ومن رهبة المكان .

وفيما هو يردد يوماً قصيدة له تتغنى بنور لا يغيب ، اجمل واروع وابقى من جميع انوار لبنان في اصباحه وعشاياه ، اذا في مدخل النفق من المغارة شخص تقوم جثته على ساقين قصيرتين من فوقهما بطن ضخم يكاد ان يكون مستقلاً بذاته منفصلاً عن الجسم . وتتصل بمنكبيه ذراعان قصيرتان في طرف كل واحدة منهما يد سميكة مجزوءة الانامل تستريحان على سطح البطن . وتحمل هذه الجثة الشوهاء رأساً كبيراً أقفرت ناصيته من الشعر فظهرت الصلعة حمراء كأن ناراً ابدية قد لوحتها . له عينان يقدح منهما لمعان اسود وتسترسل من تحت الخدين الناتئين لحية اختلط اسودها بأبيض وسخ . قال القادم : انا الشيطان .

فتذكر الشاعر الاب يعقوب . ثم فكر ان يصمد لهذا اللعين :

ـ وانا انسان من هذه المحلة احب الجمال واحب ...

ـ لا تتعب نفسك ! انا اعرفك جيداً واعرف اباك وجدك وجد جدك . قوم طيبون . ولكنكم فقراء . لم يخلف لك اهلك غير اسم عريض . ولكنك انت تفضل آباءك في اشياء كثيرة .

وانفرجت شفتا الشيطان عن ابتسامة ساخرة :

ـ انا مسرور منك . لقد رأيتك من زمن تحت ، في منعطف الوادي عند الجسر مع صبية حسناء . ما اجملها ! ما اجملها ! اي وحقي ، انا مسرور منك . ورأيتك مرة في ليلة قمراء على سطح يشرف على البحر . لقد كنت قبالتكم في الماء وكنت انت ترقص في لباس اسود أكيس ما صنع الانكليز . انك تحب النساء وتحب الترف ، فانا مسرور منك . ولقد فكرت ان اعينك على امرك شرط ...

ـ شرط ماذا ؟

— شرط شيء بسيط . شرط ان تساعدني انت . سمعتك منذ هنيهة تتغنى بنور لا يغيب اروع وابقى من اي نور . وانك لتحس خصله تشع في اعماق كيانك ، فأنت من اجل ذلك انسان والذين يشعرون بتألق هذا النور يرتفعون ويرتفعون الى ابعد من هذه النجوم ... فاسمح ان امد يدي الى قلبك وان اتلمس خصلة واحدة منه وانا اعطيك بعدئذ ما تشاء . ان بوسعي ان اعطيك ما تشاء ... لقد كنت اعرف هذا النور ، بل كنت انا نوراً منه ثم اضعته . وانا منذ ذلك الحين افتش وافتش فلا اراه . يمر امامي فلا اراه . واحس انه في قلبك ، في قلب الانسان الحق ، ولا اراه .

— مع ان كثيراً من الناس ، بل امماً منهم تجندوا لك ووهبوك انفسهم .

— نعم ولكنهم ما كانوا يتجندون لي ولا يدخلون في عداد

جيوشي الا لان ليس عندهم شيء من هذا النور . فهم اعرق في الشيطنة مني . لا لذة لهم الا في ان يعذب بعضهم بعضاً . افلا تسمع بما يحدث اليوم في اوروبا والشرق البعيد ؟ انا مرتاح ، مرتاح جداً ، فهؤلاء الاقوام قد فقدوا النور وها هم يتخيلون في سبيل التنكيل بعضهم بالبعض الآخر ما لم يخطر لي ببال بعد ان مرغوا انسانيتهم في الوحول ، لذلك تراني مغتبطاً . ولكن لذتي هذه انما هي لذة سلبية لا تروي عطشي . فاذا رضيت انت ان امد يدي الى قرارتك وانتزع منها خصلة واحدة من ذلك النور اغدقت اليك النعم .

— اذن فانت تقترح ان تعطيني ماذا ؟

— ما تشاء من النساء ملكات واميرات وقرويات . انظر ...

ونظر الشاعر الى الطريق المؤدية الى المغارة فاذا هي مفروشة بالحرير الابيض فوق اكداس من سجاد بخارى وتبريز واصفهان .

واذا رتل من الصبايا بينهن كل النساء اللواتي احبهن وقد ظهرن بروعة لم يعرفها لهن من قبل . يغنين بألحان ما خطرت على قلب « فغنر » ولا مرت ببال « ليست » ولا رفّت على ظن « رافل » . ولكنه تذكر وجه امرأة كانت تنسجم نفسها مع نفسه حين كان يرتل لها شعره ، او حين كانت تنظر واياه في لوحة من لوحات الفن ، او حين كانت تقف بصحبته امام عيون لبنان وجباله وغاباته ، او حين كانت تسمع معه انغام روائع الموسيقى النابضة بالحياة ، فاذا هما يحسان نعيماً لا يماثله نعيم مما يشترك فيه التراب والشكل . ولم يرَ لهذه الحبيبة وجهاً في رتل صبايا الشيطان الصاعدات . فعرف انهن لن يستطعن ان يعطينه شيئاً من تلك الغبطة التي كان يشعر بها مع حبيبته ، وانهن لن يقوين على منحه غير ما يقوى على منحه الشكل والتراب ، وانهن لن يتصلن بروحه ، فأشاح بوجهه وقال :

— وغير هذا يا شيطان ؟

فانهارت الرؤيا واندفعت من السفح نحو الوادي حيث موطن الجن القديم حجارةً تركت في الهواء رائحة كبريت وغمامات دخان .

ونظر الشيطان كئيباً الى وجه الشاعر فاذا عليه مسحة من جمال وتباشير من فرح عميق فقال :

— وما رأيك بان أقطعك ما تشاء من الارض واشيد لك القصور في مغارب الارض ومشارقها ، فلا تغيب الشمس عن ممتلكاتك ، واعمر خزائنك بالمال فتعطي وتنفق وتقتني ما تشاء من سيارات وطائرات ، وتأمر ما بدا لك من خدم وحشم ، وتملأ مقاصيرك وجنائنك بآثار الفن ؟

قال الشاعر : وما شأني وجميع ذلك وانا يشبعني رغيف ويروي عطشي قدح ماء بارد ؟ لقد عرفت الاغنياء فما رأيت ان

الثروة تزيد في قيمهم الانسانية شيئاً . بل وجدت الذهب والماس يشغلانهم عن الغايات البشرية ويحولان بينهم وبين المعرفة والجمال ويثيران احقاد المحرومين . الذهب ! لقد صرف الذهب الانسان عن الانسان وجنّده ضد اخيه وسخر عقله . هذا العقل الذي تشاركه ، ايها الشيطان ، فيه والذي اذا نظر اليه على ضوء النور العميق ظن انه من صنعك لا من صنع الله . هذا العقل الذي ابتدع الجنسيات والقوميات واخترع الآلة ووضعها سلاحاً رهيباً في خدمة الشر .

ـ دع عنك المزاح وعد الى رشدك ، واغتنم فرصة لن تسنح لك مرة اخرى ، فانا لن اقف نفسي على رعايتك طول العمر .

ـ انك تريد مني قبساً من هذا النور العميق . وانت تعرف ان ما من احد يستطيع ان يعطيكه ، والذين أخذوا بحبائلك من اخواني البشر وقبلوا المقايضة فقدوا النور لكنهم لم يقدروا ان

يعطوك منـه اي شعاع ضئيل . فانت اذا كنت تستطيع ان تعطي فليس بوسعك ان تتلقى الخير والنعمة .

ـ الى اي شيء تراك تطمح ؟ ان هذا العقل الذي تثور عليه والذي تفضلت بأن جعلتني فيـه مشاركاً للانسان هو الذي شاد هذه المدنية الغربية الرائعة التي تتملق كبرياء البشر .

ـ ان الانسان ما زال كلما انساق بسبب ضعفه لغوايتك يفقد النور ولا يبقى له دليل غير هذا العقل الذي تشاركه انت فيه ، ويفقد انسانيته ، اي نزوعه بحب دائم والحاح مستمر الى الحرية . ومن هنا هذه المدنيات الشوهاء القائمة على الحديد وعلى الشكل . ومن هنا هذه الانانية التي حلت محل الحب في قلبه . ومن هنـا ان كبار الفلاسفة قد ماتوا فعلاً . ومن هنا ان سلالة المصورين العظام والموسيقيين العظام والشعراء العظام قد انقطعت وحل محلهم مدارس في الرمزية والتأثرية هي من الاعيبك انت ، وفي التصوير

المكعب وهي من احاجيك .

— وما حيلتك انت ، ايها الابله ، في جميع ذلك ؟ الا تشعر ان التيار يمر فوقك صاخباً مندفعاً وان لا حيلة لك بوقفه ؟

— ومن هنا ايضاً ، ايها الشيطان ، ان هذه المدنيات القائمة على عقلك وعقول الناس ان هي الا مدنيات جافة جوفاء لا زاوية فيها للروح وللحب المتصلين بينبوع النور الازلي . ومن هنا ايضاً ان وجود الآلة ولمعانها وكمالها وقدرتها على رفع الحجر شامخاً عالياً في وجه السماء وارتفاعها هي الى اعلى مراتب الجو وتحدرها الى ابعد الاعماق ، لم يخفف من الالم الذي ما يزال اخواني البشر يتخبطون في دجوره .

— فتعال اذن وسر في موكب الناس واستعن بالانانية لابعاد الالم عنك .

— كلا ، ان ذلك لن يفيدني شيئاً ، فالنور الذي يتألق في

اعماقي وتموت انت حسرة عليه ، لو انك تموت ، يجعلني احس ان قلبي مسرح للانسانية جمعاء . ان كل جرح في جنب كل جندي جرحي انا ، وكل يد تمتد مستعطية يدي ، وكل بؤس بؤسي ، وكل حرمان حرماني ، وكل ثكل ثكلي ، وكل يتم يتمي ، وكل بكاء بكائي ، وكل جوع جوعي ، وكل جهل جهلي . فانا شريك الانسانية بآلامها . ولن يهدأ لي بال ولن يستقر لي قرار ولن اطمئن الى نعمة حتى تهتدي الى طريق الحق ، الى طريق الخير .

فارسل الشيطان ضحكة خبيثة ساخرة وسأل : وكيف تحقق هذه الاعجوبة ايها الصغير العمي ؟

— بالحب وبالحب وحده ، بالحب الذي يجب ان يظل عماد العقل ورائده . فنحن هنا في لبنان ، على الرغم من سخريتك ، في بلاد الرسل والانبياء والآلهة ، نحن في بلاد الحب . وستكون رسالتنا

ابـداً ان نغذي البشرية من معينه ونذكرها بكرامتهـا ونسير امامها في طريق الخير .

فاذا قرون طويلة تنبت في رأس الشيطان واظافر فولاذية تمتد من اطراف اصابعه . واذا لهب يتدفق من فيه وانفه . واذا به يهجم على الشاعر فيغرز فيه قرونه واظافره ويغمره باللهب . واذا اغنية تشيع في الاجواء : ما بدا لك ايها الشيطان ، فلن تقضي على سلالة حملة المشاعل في لبنان ولا على رسالة الحب .

ملکرت

بين الآثار التي اكتشفها العلماء اخيراً في رأس شمرا مذكرات شاعر نقتطف منها هذه الصفحة ، قال :

اشهد اني ما حلمت قبل حلماً كهذا . فقد كنت اسير على الشاطىء ميماً صور واذا امامي فتى مديد القامة ، اسمر الوجه ، رقيق العينين ، اسود الشعر مسترسله ، عريض الجبين ، مفتول العضلات ، متناسق التركيب ، دقيق المفاصل ، صغير القدمين ، طويل الانامل ، متمنطق برداء ارجواني ، تشع القوة والاناقة والعزم منه . فبهتّ لمرآه واخذت احدق اليه بشيء من الاعجاب والتساؤل : من عساه يكون هذا البطل ؟ ألعله ملك من ملوك الساحل او قائد من قواد مصر العظام ، او لعلني احلم ... وتقدم الفتى نحوي مبتسماً وقال : انا ملكرت .

— ملكرت اله البحر؟ رب الموج؟.. ملكرت أسطورة جميلة، خلقتها مخيلة اجدادي. ملكرت طيف حلو رائع، لا شيء الا طيف، فكيف تكون انت ملكرت؟

— انا ملكرت معبود اجدادك. أفلا ترى انهم كانوا على حق في ما يعبدون؟

انا اسطورة، وانا جميل ورائع وقوي لاني اسطورة.

انا حلو ازلي ابدي لاني طيف.

تتراكم الحوادث على مخيلة البشر في هذا الشاطىء الجميل، فتعصف الايام وتكر فتمحوها وابقى انا طافياً معتصماً بشراعي، أملأ ذكرياتهم واترنح في صدورهم واتردد على افواههم كلما نظروا الى هذا البحر وكلما خفق شراع او تهادى مركب.

— انت ملكرت... انت اذن ملكرت.

واحسست ان ايماناً قديماً يستيقظ في داخلي بعد أن رقد

آلاف السنين : واين انت اليوم ؟ اين انت ؟.. لا يراك احد ولا يسمع صوتك احد . لقد تناساك بنو قومي كأنك ما كنت، وكأنك مت، مع من مات وفنيت مع من فني ، وكأن لم يخفق لك شراع ولم يزحف مركب على ماء .

فضحك الفتى حتى هاج البحر وماج واقتحم الرمال وتكسرت امواجه عند قدميه وقدمي .

— انا هنا كل يوم لا ابرح شواطىء بلادي ، احرسها ليل نهار .

انا هنا في خواطر الناس ، في صدرك وصدورهم .

انا في النور المتدحرج مع الفجر على القنن والاوداء .

انا في الماء المتدفق من الينابيع المهرول نحو البحر .

انا في اغصان الارز والصنوبر والشربين المرتفعة المتمايلة في الهواء .

انا في ارج الزهر وفي سنابل السهل .

انا هنا . عبثاً ينساني او يتناساني النـاس فسأظل الهادي ، وسأظل الطريق ، وسأظل الخير .

ـــ تباركت من نعمة ومن محبة ومن خير !

ورأيتني اتفهم سبب الشوق الذي يغمرني ويدفع بي نحو النور والينابيع والاغصان والجبال والاوداء . واسمع الصلاة الصامتـة التي تتصاعد من اعماقي في خشوع وايمان ورهبة كلما نظرت الى هذا الجبل ، او كلما لمست ترابه وعببت من ينابيعه واصغيت الى انغامه ، او كلما رميت بنفسي في امواه بحره .

ـــ تباركت ملكوت اله البحر . تباركت طريق المعرفـة ، تباركت ، تباركت .

فابتسم الفتى ورفع يمينه في حركة من يبارك وقال :

« لقد خلقت لكم البحر اهلَ بلادي ، وانتم منذ ذلك العهد

وعيونكم ابداً اليه وقلوبكم ممتلئة منه. قد تعتصمون في الجبال وتنفخون الحياة في الصخور ولكنكم تتطلعون اليه وتنزلونه وترفعون فوقه الاشرعة وتبارکونه فکأنکم منه ، من قطراته، وکأن نفوسکم مکونة من زرقته . ان بينکم وبينه لنسباً . اي اثر ترك لکم بعل ، واي مأثرة خلف لکم ؟ لقد تناسيتم ادونيس وعشتروت ، فهلکا تحت غبار السنين . اما انا فقد خلقت لکم البحر فدخلت الى قرارات نفوسکم ، وتغلغلت في اعماقها الخفية . وعبثاً تنسون اسمي وتعبدون آلهة غيري ، فانا الحي الذي لا يموت في ضمائرکم وضمائر بنيکم ما دام هذا البحر الذي تراه هنا ينسج احلامکم ، ويصقل عقولکم ، ويفجّر عواطفکم . وانها لحکاية طريفة تلك التي حدتني ان اخلق هـذا البحر ، فأکوّن امة واميزها من سائر امم الارض على کر العصور :

کان رفاقي الآلهة قد اقتسموا ملك الطبيعة . فاذا هنالك اله

الخير واله الشر والحرب ، اله السماء واله الارض ، اله الجحيم واله الحكمة ، اله الرقص والفنون الجميلة ، اله البرق والرعد ، واله النجم . وبقيت انا لا مملكة لي ولا عمل .

اقضي ايامي متنقلاً في ممالك رفاقي وقصورهم وجنائنهم .

اغازل الالهات وانعم بجمالهن .

واحتسي الخمر لاهياً عابثاً .

وارى الناس يعبدون رفاقي ويقربون لهم القرابين استدراراً لخيراتهم او دفعاً لشرهم ...

وامرّ فلا يحسني احد ولا يعبأ بي . وذات يوم بينا كنت اتلقن اصول الحكمة من فم « مينرفا » متنقلين فوق جبال لبنان ، هبت من ناحية الصحراء عاصفة واندفعت الرياح تزمجر وتولول ثم عصفت في ردائينا واخذت تدفع بنا بعنف ، كادت ان ترمي بنا من شاهق لولا اننا تخلينا عن الردائين .

فحملتهما الرياح الى بعيد ورمت بهما في الوادي السحيق الذي كان ينخفض عند اقدام الجبل الاشم.

ولما هدأت العاصفة كانت فكرة الشراع قد انبعثت في خاطري واكتملت.

ومرت على ذلك عصور طوال وانا انظر الى جهد الانسان وعنائه، والى محاولاته الفاشلة في قطع الهوة العميقة التي تفصل لبنان عن البلدان الغربية النائية. فاشفقت عليه، على ضعفه الى جانب ما ساورني من اعجاب بعناده وصبره وجلده. وقلت في نفسي: سأبسط هذه الهوة واسلمه الشراع. واخذت سوطي ورحت ألهب السحاب فتدفقت قربه، وضربت سفوح الجبال فتفجرت الينابيع وكرت الانهر وزحفت المياه متساقطة في الوادي العميق.

وانا انظر مغتبطاً وازداد همة في حث السحاب واستدرار خزانات الارض.

فما يسمع الا قصف صوتي والا وقع قدمي وهما تحطمان الصخور وتغوصان في الارض وتشقان السفوح.

ولقد ظن الآلهة انني جننت فتجمعوا وأخذوا ينادونني ويتلطفون الي خشية على الارض من فيض السيول.

وراح كل واحد يعرض عليّ ان يتخلى لي عن ملكه.

فما باليت بهم ولا بعزوضهم، بل مضيت في عملي الى ان ملأت الهوة.

فامرت السحاب ان يرتفع فارتفع، والسيل ان ينقطع فانقطع، والينابيع ان تتمهل فتمهلت، وصحا الجو واشرقت الشمس على البحر الذي انا ربه.

وظل الآلهة طويلاً يظنون بي مساً من جنون وهم لا يدركون قيمة الزوبعة احدثتها تلك العاطفة التي جاشت بي ولا مدى اثرها على مستقبل البشر.

ونظرت بعد ايام الى البحر فاذا مياهه تتموج بيضاء صافية ، فمددت يدي الى السماء واخذت قطعة منها وعصرتها في اليم فاذا سماء ثانية تكتنفها الارض ، واذا في قدرة البشر ان يتلمسوها بايديهم .

وخرجت بعدئذ الى الناس كواحد منهم ومضينا الى غابات الارز وانشأنا اول مركب رفع فوقه اول شراع وركز اول مجذاف وجريت واياهم فوق اليم .

منذ ذلك الحين والاشرعة تروح وتجيء فوق بحري بالخير والبركات . »

ـ تباركت ملكرت اله البحر ، تباركت ملكرت .

وتوادت الرؤيا .

الكلب المجنح

كل سنة في الثلاثين من ايلول يسمع سكان نبع الصفا عواء ينحدر بين الصنوبر والادغال قادماً من ناحية النبع، تردده الاصداء وتتناقله الاوداء. وتظل كلاب الجيرة بعد ذلك اياماً لا تنبح ولا تهرّ في وجه فقير، كئيبة حزينة تتلفت ناحية مصدر الصوت. فتسرح بنات آوى في تلك الفترة وتمرح يقيناً منها ان كلاب الحي لن تتصدى لها بسوء، ولن تجري وراءها، ولن تعكر عليها صفو الصيد. اما الدواجن فتأوي قبل الغياب الى مرابيها لعلمها ان الكلاب لن تدفع عنها ضيراً، ولن تقيها شر الغزاة اذا ما قدموا باظفارهم وانيابهم.

قالت لي عجوز: بقي هذا السر مكتوماً والناس يتأولون فيه الى ان كشف عنه ساحر من بلاد الشرق البعيد، كان يتنقل في

تلك النواحي . فاتفق له ان حط ركابه في اواخر ايلول في الصفا ، وكانت الليلة قمراء تغمر الفضة اعالي الصنوبر والشربين وتفرش الارض . والنبع يغني اغنيته الازليـة في ذلك الوادي وينحدر متألقاً حيناً تحت ضوء القمر ، مختبئـاً حيناً في عتمة المنحدرات كأنما تسبح فيه الف حورية بيضاء الى جنب الف مارد اسود .

قال الساحر : ولست ادري ما حداني ان ازور النبع تلك الليلة فقمت اليه سالكاً الضفة الشرقية من النهر حتى بلغته ، فاذا هو يتدفق من تحت صخرة عريضة ويتجمع في غبيط قبل ان يكر كرته الكبرى . واذا قبالته صخر كأنه مقعد من فوقه رفرف . فتمددت هناك اتأمل الماء والنور وتألق مجديها . وبينا انا على هذه الحال سمعت في الماء حركة غريبة فالتفتُّ فاذا مياه الغبيط تنفرج ، ويقفز منهـا فتى بهي الطلعة حلو الملامح موشح برداء قرمزي مؤتزر بزنار ابيض ، وقفز معه كلب انقى بياضاً من ثلوج

الباروك . ويستوي الفتى من فوق الصخرة العريضة الممتدة فوق النبع ، ثم يلتفت الكلب ناحية القمر من السماء ويرسل عواءه الحزين الكئيب الطويل ، فاذا بي احس بكاء في الفضاء ، واسمع بكاء في اوراق الصنوبر ، وبكاء ينحدر من اشجار الارز الجاثمة هناك بعيداً فوق اعلى الجبل ، وبكاء في الصخور وارتعاشاً في الاعشاب . ثم يحني رأسه فيربت الفتى على ظهره ويدور ناحيتي ، فأقف مرتاعاً واحييه فيرد التحية ويقول : هي اول مرة منذ مئات السنين ارى فيها وجهاً لانسان . ولطالما حننت الى محادثتكم انتم البشر من غير ان ادرك سبب هذا الحنين . لقد كنت اميراً من الجن مؤمراً على هذه الناحية من البقاع ، حتى وطئها اخوانك من الناس وافسدوا علي الاقامة فأويت الى هذا النبع ، اقطن مع عشيرتي جوف الارض في مغاور النبع وجيوبه . لا اخرج الا مرة في السنة مع كلبي هذا فاذا متّع عينيه بالقمر ونوره ونبح في وجهه نباحه ، عدت

واياه من حيث اتينا .

قال السلحر ، وهو المؤالف للجن واحاديثهـا : لمـا رأيت هذا الامير من الجن يحدثني بمثل هـذه البساطة روّح عني وعاد اليّ روعي واجترأت على السؤال :

ـ وما قصة هذا الكلب الذي تخرج بـه كل سنة مرة من مملكتك تحت الارض لينبح في وجه القمر ؟

قال : اتاني هارباً من الناس القـاطنين على ساحل البحر ، وانضم الى فصيلة كلابي . غير انه ظـل فريد المسرى دائم الاكتئاب ، تمر الطير فيرمقها بنظر حزين ، وتشدو فيصغي الى غنائها والدمعة في عينه . وتظهر الضبعان فلا يهمّ في اثرها ، ولا يكشر عن انيابه ولا ينبح . يربض اذا ما سجا الليل على صخرة من هذه الصخور ، ويروح يتأمل النجوم البعيدة . ولولا انـه كان يهرّ في وجه القمر اذ يطل من وراء هذه الجبال لمـا خِيل

كلباً من الكلاب.

جاءني يوماً متبرماً : اف لهذا العيش ! اننا نحن سلالة الكلاب لأقل حظاً في الدنيا من سائر المخلوقات . فالانسان الذي يحسب انه سيد هذا الوجود ، ما دب على الارض وما ارتفع فوقها من نبات ، وما اختلج في صدرها من كنوز وما تدفق من ينابيع ، وانه هو وحده صاحب العقل ، وان انسانيته شيء من كنه الآلهة ، لأقل وفاء من الذئاب . لقد صادقناه نحن جماعة الكلاب ، ووفينا . وصرنا له عوناً على سائر الضواري والجوارح . نحمي دياره وقطعانه ، وندله على مكامن الطير اذا قام يسعى لصيد ، ونصد عنه عدوان شقيقه الانسان . وها هو يستعبدنا . ها هو يقيدنا بالسلاسل ويطعمنا من فتات مائدته . له اللحم ولنا العظام . يغضب فينتهرنا من غير ان نكون سبباً في اغضابه ، ويفرح فلا يصيبنا منه غير الرفس .

والطبيعة ايضاً لم تنصفنا . ولست ادري أيحس اخواني الكلاب ما احس من الظلم ، ام تراني وحدي اشعر بالاجحاف الذي منيت به وفصيلتي . نحن اذا شئنا المسير من مكان الى مكان تحتّم علينا ان نقيس مدى الارض الفاصل بينهما مشياً على الاربع ، فلا بد من صعود التلال ، ولا بد من هبوط الاوداء . فاذا قام بين المكانين حائط مرتفع ، تعذّر علينا الوصول او اضطررنا الى سلوك طرق ملتوية تضاعف المسافات . في حين ان الطير تستطيع ان ترتفع في الهواء ، وان تسلك اخصر الطرق الى مزارها . ونحن لا نستطيع ان نتسلق شجرة ولا ان نترجح على غصن بينا من الحيوانات من تقوى على ذلك وتستطيبه . ونحن اذا نطقنا فنباح لا تتغير وتيرته ولا تعذب رنته ولا يرق قراره : مقاطع واحدة للطلب والاعراض وللتشكي والتشكر . ولولا هزة الذنب لما استطاع واحدنا ان يعلن عن غبطته .

وانت ، يا اميري ، لو لم يكن لك بعض خصائص سليمان ، عليه السلام ، لما تمكنت من فهم ما اشكو اليك .

اما منظرنا فمن اين لنا ذلك الريش الصقيل وتلك الالوان اللماعة البهية ؟ من اين لنا مد الجناح ورفع الذيول ؟ وكيف نطال هذا الجو الفسيح ونحن نكاد لا نجرؤ على القفز من فوق حائط ؟ وأنّى يكون لنا مجاورة النجوم ونحن لصقاء الارض لا نقدر ان ننفصل عنها ولو بمقدار علو شجرة ؟ نعم ان الاسد لا يطير ، والنمر لا يجاور النجوم ، وابن آوى لا يحط على الماء ، ولكن للاسد صولته ، وللنمر هيبته ورهبته ، ولابن آوى حريته .

فليت لي يا سيدي جناحي النسر قوة ، وصوت الكنار حسناً ، وألوان ذنب الطاووس ، فأتغنى واتمايل وادل واذهب حيث يطيب لي المقام . اشرب من رؤوس الينابيع ما استعذب من مياه ، وألتقط ، اذا شئت ، الندى المتساقط على اوراق السنديان ، واطلب

ما استسيغ من طعام وساعة ما استسيغ . ثم اجرد ذيلي على قنن صنين وضهر القضيب والباروك ، وامر عالياً بعيداً فوق الحرمون ، ويُظل خيالي الناس عندما ارتفع الى جوار الشمس .

فرقّ قلبي ورحت اهوّن عليه :

ــ دع عنك هذه الاماني ، وخلّ الوهم . فانت لو صرت الى ما ترغب في ان تكون لحننت الى ما انت فيه .

ــ هذه يا اميري احاديث انسان .

ــ وهب ذلك ، افتراك اعلم منه واقدر على فهم الحكمة ؟

ــ لا ، ولكني لاحظت ايام كنت في خدمته انه متى عجز عن تحقيق الاماني ، او متى ارهقته نازلة ، عاد الى هذه الحكم الهينة ، يسلي نفسه ويروّح بترددها كربته . فهو لا يسلم بالقدر الا اذا لم يوفق في رغائبه . اما اذا وفق فليس للقدر ولا للرب الذي يعبد في توفيقه شأن ولا ارادة ولا تدخّل .

أفتريدني كالناس يا مولاي ؟ اني لست في حاجة الى من يهوّن علي . انا اعرف ان الطبيعة اساءت الينا نحن ، معشر الكلاب ، واعرف ان لا حيلة لي في التبرم بالطبيعة . فما هي حاجتي بعد للقول انني متى صرت الى ما اشتهيه اسفت على ما كنت فيه ووددت العودة اليه ؟ ليبقَ اذن شوقي الى حالة امثل يحزّ في نفسي الى ما شاء ، فلن يظفر مني باذعان للقدر ولا بتسليم . وسأظل حانقاً على هذه القوة التي خلقتني كلباً ، ولم تخلقني طائراً او سبعاً او نمراً .

ـ ولكنك تجدف وانت حري بان تُرجمْ . أفلا تخاف سوء المصير ؟

ـ وكيف ارهب ؟ ان هذه العوالم اذا صح زعم الانسان ليس لنا فيها محل ، فنحن وسائر الضبعان والطيور لا ينتظرنا بعد هذه الحياة نعيم ، ولا يهددنا جحيم . يقول الانسان ان ارواحنا تنحلّ مع اجسادنا . فنحن تراب كلنا والى التراب كلنا . وسيان

أدفعت الكلاب ضيماً عن مخلوق ، او الحقت به الشر ومزقته بانيابها وهشمته ، فهي اذا استطاعت النجاة من عقاب الناس ، فلن يلحقها بعد ذلك عقاب . افعلمت لماذا اريد ان اكون طائراً قوي الجناحين حلو الطلعة ، احقق نعيمي هنا واهرب من جحيمي هنا ؟

ـ انك تتحدث كأنك انسان ، وبعض الناس يؤمن ايمانك هذا ، افتعرف ؟

ـ اعرف ، نعم . واعرف ان الانسان آمن بكل شيء وانكر كل شيء . واذا كان ما يزعمه بعض الناس حقاً من وجود اله وشياطين فما اعجب الا لهذا الانسان الذي يفتش عن الآلهة ويبحث عن الشياطين ، وكل ظني انه مركّب من اله وشيطان . فلا الاله الذي يجدّ في اثره ببعيد عنه ، ولا هو يستطيع تفلتاً من شيطانه . ولكن ما لي يا سيدي وللناس . والحديث عنهم كالحديث عن الافاعي ، فلندعهم في شقائهم . ان العقل الذي يدلون به على

سائر الحيوان والنبات ، هو سبب شقوتهم . واني لتراني شاكراً حامداً ان ليس لي عقلهم ولا حكمهم ولا مشاكلهم . كل رغبتي ان يكون لي ميزات الطيور . ولقد رأيتك يا مولاي قوياً قادراً على ما لا يقدر البشر . فانت تستطيع ان تظهر شخصاً وان تغيب عن متناول الانظار ، بيد انك تكون حاضراً . ورأيتك احياناً تنقلب طائراً نادراً او اسداً مهيباً . فرقّ لحالي وهبني جناحي نسر وحنجرة بلبل ، فاغني لك اطيب الاغاني واسعى في حاجاتك ، وادفع لك الابتهال حتى آخر العمر .

ـ ويك اني اذا وهبتك ما تريد ، لن استطيع ان اغيّر من طبائعك ، بل ستظل على الرغم من الشكل انت اياك كأنك ما اعتصمت بجناح ، ولا ارتفعت في فضاء ، ولا تقربت من مطارح النجوم .

ـ رحماك يا مولاي ، دعنا من آراء الناس ، وهبني ما اطلب .

قال امير الجن : فنفخت في انف هذا الكلب ، فاذا هو طائر ما وقعت على مثله عين . في ريشه كل الوان قوس السماء ، وكل ما بينها من الوان جدد لم تخلق الا له . واعطيته خصائص لم يتمتع بمثلها طائر . فكان اذا شاء يصير اسود كله او ابيض كله . وكان بوسعه ان يكسو احد جناحيه وما يليه من الجسم ظلمة الليل ويكسو الآخر وما يليه بياض الثلوج . بل كان في طاقته ان يظهر بلون واحد من الالوان التي يشتهي ، او ان يظهر بها جميعاً . فكأنما هو عروس من بنات الملوك ، خزائنها ملأى ، وملابسها دائمة الجدة . اما غناؤه فقد عرفت ان غير واحد من الكناري مات حسداً عندما سمعه ، وان البلابل اقسمت لا تغني امامه . وقد كان لجناحيه قوة ما تيسرت من قبل لجناحين . يطير الايام ، ويطير الليالي فلا تعب ولا عياء . وراح طائري هذا يقطع الآفاق ، يدل على السهول ، ويرتفع فوق الجبال حتى يقارب الشمس ، فما بقي في العالم

غاب لم يزره ، ولا بحر لم يرف فوقه ، ولا نهر لم يواكبه ، ولا كناري الا عأمه الغناء . ثم عاد الي بعد زمن يحدث عن عجائب الارض والمخلوقات ، وينظم كل يوم لحناً جديداً فريداً .

وذات ليلة من اواخر ليالي ايلول كان طائري العجيب يسمر على غصن عالٍ من اغصان الصنوبر القائم هنا كالشموع ، فاذا بالبدر يرتفع على مهل من وراء الباروك ويغمر الدنيا بفضته ، فانقطع صوت طائري وراح يتأمل القمر . وما هي الا نبحة ارسلها في وجهه طويلاً ، فاذا بالريش الجميل يتناثر في الفضاء الفضي ويختفي ، واذا طائري على الارض ذلك الكلب .

ولما عكر الانسان علي صفو هذه الديار ، ورحلت وعشيرتي الى مغاور النبع ، استصحبت هذا الكلب ، لعلمي ان النفَس الذي نفخت في انفه قهر الموت ، وانه اذا بقي هنا سيعيش معذباً بين الميّتين . وها اني اخرج به مرة في السنة ينبح في وجه القمر ،

ونعود .

قال الساحر : وسقط امير الجن وكلبه في الغبيط وتواريا عن نظري في مغاور النبع بعيداً تحت الارض .

العرعار

كان ما كان في قديم الزمان وفي ما كان صبية من الجن تعيش بين التلال القائمة هنالك فوق قريتي في مخبأ جعله القدر جوف جدة السنديانة الجبارة التي تظل اليوم بقاع الحقلة ، وتُروى عن قدمها الاحاديث ، وتذكر ابواب السرايات التي اصطنعها الامراء من خشب جذوعها ، وتعقد حلقات الصبايا والشباب تحتها كلما خرجوا لنزهة ايام القطاف ، ويرتجحون على اغصانها . ولأهل القرية شغف بهذه السنديانة وانعطاف اليها . فاذا ذكرت لهم ترنحوا وساورتهم خيلاء لا تقل عن خيلائهم عندما يذكرون البرج القديم الذي صنعت من حجارته كنيستهم ، او عندما تحكى حكايات امواتهم وما كانوا عليه ، يرحمهم الله ، من فطنة وشجاعة واينا س .

يقال ان صبية الجن تلك كانت من الجمال على جانب يبهر الابصار ويأخذ بالقلوب . لا يصلح الفجر ان يكون خادماً لها ولا يشرف الطيب الا عالقاً باطراف اردانها . اما اناقتها فقد حفظت لنا التقاليد الموروثة عنها ما يفتن العقل . تظهر كلما ظهرت برداء جديد يلفها لفاً لا يضيع معه شيء من جمال التكوين ولا يقلق الحشمة في شيء .

وكأن الفصول كانت مؤتمرة لما تتخير هي من الوان : فاذا خرجت في المعطف الازرق ، صفت السماء ومسحت وجهها بالازرق الناعم . واذا اقبلت بالاخضر ، ترنحت الغصون ولمع الاخضر في جنبات الغاب واعشوشبت السفوح . وتمر الغمامات البيضاء حالمة كلما لوحت لشيء بمنديلها الابيض . ويجيء الخريف ويعلو الاصفرار اذا ما بدا لها ان تطل على التلال بثوبها الاصفر . وما كانت الورود لتفتح شفتيها لندى الفجر ولا لترتفع اعناق الشقائق

الا عندما تقبل الصبية بالاحمر اللاهب ، بالارجوان الذي علّمت صنعه اهل الساحل ارضاء لترفها .

ولقد كان اجدادنا القدماء يرجعون سراعاً الى بيوتهم يحصنون ابوابها ونوافذها ويعدون الوقيد عندما يلمح واحدهم الصبية تتمايل بالاسود البراق يقيناً منهم ان السماء ستقطب وتكفهر جوانبها وتتفلت الاعاصير من مكامنها في الجبال وتهوي من اعالي صنين والزعرور وجبال الباروك مولولة ، صاخبة ، عاصفة ، مكتسحة .

ولكن الصبية كانت دائماً نعمة تلك البقاع وخصبها وحياتها . فلقد كان يكفي ان يمر ظلها الرضيّ مرة في السنة على وجه الارض حتى تتدفق خيراتها بين يدي اجدادنا ، وتحل البركة على الكروم ، وتشقر العناقيد ، ويقطِّر التين عسله ، ويحلو الاجاص ، وتثقل اغصان التفاح ، بعد ان تمتلىء الاهراء بشتى الحبوب .

تلك كانت حياة اجدادنا في عهد صبية الجن : عيش مطمئن

وترف دائم . لا حسد على نعمة ، ولا تنازع في ملك ، ولا تنافس في جاه ، ولا صبوة الى شيء يقتنيه واحد بالاستقلال عن الآخرين . بل ثروة موزعة بالسواء ، وخيرات مقسمة بالسواء ، وغبطة شائعة بينهم بالسواء . يزيد نصيب الواحد منها عما تقتضيه الحاجة وتتطلبه الرغبة .

عكف اجدادنا في ذلك الزمان على مشاغل الفكر وعمروا مكاتبهم ودورهم بآثاره ، لا فاتتهم فلسفة ولا افتقروا الى فن من فنون الموسيقى والتصوير والنحت والبناء . ولولا زلازل درست معها آثارهم لكان اليوم بين ايدينا منها ما لا تذكر عنده اليونان . ولكن تلك البراكين التي تفجرت على مقربة من القرية والتي لا نزال نشاهد حممها في « حقلة السودا » اجبرت حفداء جبابرة الفكر اولئك على الفرار لا يلوون على اثر . ولما عادوا بعد ان هدأت ثورة الارض لم يجدوا من آثار آبائهم شيئاً .

وظل اجدادنا في نعيمهم هذا زمناً طويلاً الى ان حدث ما لم يكن في حسبان احد وما جهلوا هم اسبابه وذهبوا عن وجه البسيطة وهم يجهلون . وهو ان صبية الجن اختفت يوماً على اثر زوابع زعزعت عمد السماء وروعت رواسي الارض .

وما لاحظ اجدادنا الا ان نبعاً تدفق بعدُ عند سفح جدة سنديانة الحقلة في مطرح يقال له العرعار .

وخبر كل ذلك ان اميرين فتيين من امراء الجن وقعا في حب الصبية فرأت ان لا يحظى عندها الا من هو منهما ابسل واشد ساعداً واكثر خبرة في فنون القتال . فنشب بينهما براز عنيف دام اياماً وليالي ، تقاذفا خلاله بجذوع العتاق من اشجار الصنوبر والسنديان والارز ، وتراشقا بالنجوم . وامتدت ايديهما الى قنن لبنان فأوجف عليه القدر ورمى بالخصمين في ظلمات ما خلف الشمس ، حيث ما يزالان يقتتلان . ونظر الى الصبية فاذا هي

تغرق عند السنديانة الجبارة في جوف الارض وتنساب من هنالك ثم تنطلق في العرعار ماءً زلالاً صافياً انقى من دموع الفجر وابهى من احلام العذارى .

تبدلت الحال بعد ذلك على اجدادنا فبخلت عليهم الحقول بخيراتها ، وجفت ضلوع العرائش ، وفرغت الاهراء . ولولا ذلك النبع الجديد الذي كانوا يتملقون به الارض فيمرع منها ما يلامسه الماء ويعود حيناً الى سالف سخائه ، يوم كان ظل الصبية يمر عليه ، لمات اجدادنا جوعاً . غير انه كان لا بد لهم من العناء والعمل والكد والجد ، وكان لا بد لهم من ان يتنازعوا في تملك الصالح من الارض لقربها من النبع وتسلطه عليها . وكان لا بد ان يظهر عندهم شغف به وحرص عليه واحترام يكاد لا يفرق عن التقديس الا قليلاً . وكانت الصبايا يتعبدن في سبيله فيصعدن كل سنة موكباً طويلاً ابيض يرقصن حياله ويغنينه ويتبركن به . ومن هنا

ان القرية عرفت بين اهل الجوار باسم بيت العابدات .

وظل نبع العرعار منذ ذلك الحين مطمح الانظار حتى من غير اهله ومحط ركاب حتى الغرباء عن البلاد . ولقد خطر ذات مرة لقوم من عمال قياصرة روما ان يحرزوه ، وان يقدموه قرباناً لواحد من آلهتهم شيدوا له هيكلاً فوق اطلال هيكل بعل مرقد . فأقاموا للنبع قبواً معقوداً بالحجارة الضخمة ، وعمدوا الى الصخور فأفرغوها ، ونحتوا منها قساطل لجر المياه . فعرف اجدادنا آنذاك اتعس عهد من عهودهم . غير ان العرعار ما عتم ان حطم قيوده ومزق قساطل الحجر وعاد الى بقاعه يحمل الخير والبركات .

وها نحن اليوم نعيش في كنفه ونتبرك بوجهه سواء في ذلك فقيرنا وغنينا . فقد يولد واحدنا معدماً ويعيش معدماً لا يملك حجراً يسند اليه رأسه . غير انه لمجرد ما هو حفيد من حفدة اجدادنا الاولين ، سيظل له حق بان يتملك وحده ، ساعة من الزمن كل

اسبوع ، جميع مياه النبع ، يغتسل بها واهله ويروي بها ما يستأجر من ارض ، ويمتع بصره برقراقها . ولعل هذه المساواة في الحقوق حيال العرعار هي كل ما بقي لنا من عهد صبية الجن .

الرصد

قبل ان يتفرق الآلهة في الارض فكر بعل كبيرهم ان يدعوهم الى مأدبة يقيمها لهم في مغارة قاديشا.

وكان الليل الذي اختاره ليلاً صافياً نقياً من اعذب ليالي لبنان. امر فيه الرياح ان تهدأ، والبحر ان يسكن، والهواء ان يعتدل. في الهزيع الاول من ذلك الليل كانت اشباح جبارة تتخطى رؤوس جبال الجرمق والريحان والباروك وصنين والعاقورة والشيخ، هابطة من فم الميزاب وضهر القضيب. تسير في مواكب من العظماء والعظيمات على ضوء النيرات المدلاة لهم من اعالي السماء.

فاذا بلغت المواكب الطريق المؤدية الى المغارة ارتفعت النيرات عائدة الى سمائها، وداس الآلهة طريقاً فرشها لمقدمهم الاله

الاكبر برمال من الذهب ، تؤدي بهم الى مغارة غطيت حيطانها بالحرير الارجواني ، وفرشت ارضها بالاخضر منه ، واضيئت جوانبها بأشعة تنبعث من شموع لا تذوب ، كأنها من جوهر الماس . وزينت بمختلف انواع الزهر الشذي النضير ، في سلال محبوكة بالنور .

ودعي الآلهة الى مقاصف ارتفعت على اعمدة من الفضة ، فوق مجرى النبع ، ووضعت من حولها الطنافس الناعمة النادرة . وقدم الطعام الشهي ، وهو من خير ما عرفت الدنيا ، والفاكهة ، وهي من ألذ ما انبتت جنائن لبنان) والخمرة المعتقة منذ الازل في اقبية بعل ، ادارها عليهم في آنية من الابريز مرصعة بالياقوت والمرجان صبايا حييات مجللات بالابيض ، مؤتزرات بالارجوان ، ارق اديماً واندى من وجه الفجر .

وكانت الراقصات ، في اثناء الطعام ، يقمن بابرع ما علمهن بعل

مرقد من فنون تحار بها الالباب ، على اعذب واطرب انغام عرفتها السماء ومرت في اجواء الارض .

وما ان همّ الآلهة بمغادرة المقاصف ، حتى وقف الاله الاكبر فقال : لقد قسّمت بينكم الارض . وسيسافر غداً كل واحد منكم الى حيث اعددت له العبّاد والهياكل .

ولكنه لا يصلح لنا جميعاً ان نتخلى عن حماية هذه الديار ، انّى اقمنا من الارض . فهي بلادنا الاصيلة ونعيمنا الاول . ترعرعنا في اكنافها ، وتظلانا سماءها ، وعببنا من انهارها وينابيعها ، وغسل بحرها اقدامنا .

فانبرى ملكرت ، رب الحرب المنتصر واله البحر ، فقال : سأظل احمي شواطئها وأرد عنها .

وقال مرقد : اجعل من مرابعها مراقص ومسارح للنعيم ، واعلّم ابناءها اصول الفن ، فلا يبذهم فيه احد .

وقالت شيما : امسح ابداً وجهها بظل من جمال وجهي ، فتكون انعم وأرق بقعة من الارض .

وقال انو اله السماء : اترك لون عينيّ في سمائها فتظل زرقاء صافية تلمع على آفاقها ابهى النيّرات .

وقال انليل اله الارض : أخصب ارضها .

ووعدت مينرفا الاهة الحكمة ان تجعلها للفكر معقلاً وللحكمة مهداً .

واتفقوا جميعاً على ان يجود كل بما عنده من خير ومحبة وقوة على لبنان ، ليظل ، مهما تألبت عليه النوائب ، راسخاً ، عزيز الجانب ، مرموقاً . لا يدخله فاتح الا ويخرج منه ذليلاً ، ولا يطمع فيه طامع الا ويخيب ، ولا تمتد يد اليه الا وتحرقها النار . ويظل هو منبعاً دائم التدفق للجمال والحب ، يوزع منهما على الدنيا ويخفف بهما الآلام التي كان يعرف الآلهة انها ستعصف بالخليقة .

ويظل اسمه حرباً على البشاعة حيثما عششت في الارض .

قال بعل : طيبة هذه العهود . ولكن لا بـد لنا من ان نترك رصداً في هذا الجبل ، ينبئنا بما فيه لنسارع الى نجدته كلما هددته المخاطر ، وأحدقت به الرزايا . وخليق بنا ان نقيمه من شيء لا يظن به ولا يتوجس منه المعتدون . وهذا الارز القائم على مقربة منا في ظهر الرابية ، من هاهنا ، حقيق بان يكون هذا الرصد .

فصفق الآلهة استحساناً . وامتدت ايديهم الى جوف الارض حتى امسكت بجذور الارز فباركتها . وانصرف الآلهة بعد ذلك واطبقت الصخور على باب المغارة المقدسة .

وها ان الارز يقوم برسالته منذ آلاف السنين . فهو كلما احدق خطر بلبنان ، تضطرب اغصانه الخالدة وتثور وتسمع عزيفاً رائعاً ، فيتسارع الآلهة من اقاصي السماء والارض

يدفعون البلوى مهما طال امرها ، ويدحرون المغتال مهما عظم شأنه وتفاقم خطره ، ويعيدون الطمأنينة الى الجبل ويوطدون السلام .

بعل مرقد

بعل مرقد زين شباب الاولمب .

لها فما لها اله مثله .

علقته الالاهات فولّهن ، حتى اغار الآلهة . بيد انه كان يعشق من دونهن صورة لصبية تخيلها ابهى واجمل وانعم من اجلهن واروعهن بهاء .

ذلك سره المكنون ، سر كان يترك على جبينه مسحة كآبة وفي عينيه اطيافاً واحلاماً .

وبعد ان ادار بعل الكبير الكون ، راح بعل مرقد يتعرف الى وجوه الاحياء والنبات والجماد ، لعله يجد للصورة الحبيبة في المخلوقات شبيهاً .

يضرب كفاً في السفوح فيفجّر الينابيع .

ويشير بيده الى التراب صعداً فتنبثق الاشجار .

ويرنم ، فيكرّ من كل افق بلبل جديد يبسط على الريح جناحاً رشيقاً ، ويرسل في الاجواء اغنية واجدة .

وتسلّى الاله طويلاً وعبثاً .

وبينا هو يطوّف ذات يوم في جبال لبنان بلغ مكاناً عرف في ما بعد بهضبة بعل مرقد ، فاعجب به : تلة تنهض كالشمخ الغض وكالنهد المتكبر ، تدور حولها الاوداء ، وترمقها قمم صنين والكنيسة ، ويرنو لها المتوسط بألف عين متألقة ، وتنسكب عليها الاضواء من اغوار السماء البعيدة .

ونظر ، فاذا الارض هنالك تنكشف عن صخر تغلغلت في حناياه الوان الوزال والشقائق والخشخاش ، وبقيت فيه على بهائها تعبث بكف الزمن الماحية .

فاخذ ازميلاً وراح ينحت .

ينحت ليل نهار ، يحدوه الشوق ، ويستحثه الامل .

فينفلت الحجر .

ثم يتكور الحجر .

ثم يشرق الشكل العجيب الفريد .

ويخرّ بعل امام الصورة الحبيبة المحققة في الحجر الابكم .

هوذا المعبود ينقطع ، والاجيال تنهض وتنهار ، على معبود من نسج خياله ومن صنع يديه . فتعرف السموات حباً لم تشهد من قبل له نظيراً . ان كواكب لبنان وتراب التلة المقدسة تستطيع وحدها ان تقول لنا كم ذرف بعل مرقد من دموع ، وكم مرغ على قدمي تمثاله جبينه العالي ، وكم قضى من الازمان يناجيه ويسترقه . وان الحجارة هنالك والادغال تهمس في اذني من يسمع : ان العذب الحار من لغة الحب اصداء باردة لاحاديثه ، وان الصلاة ذكريات من نجواه .

وبينما هو يوماً في غمرة من الهوى والالم ، اذا بالتمثال يرتعش ، وينقل في الارض رجلاً ، ويتمايل بين يديه اخف من النسيم .

مر على الاولمب فترة كان خبر الشوق الخالق فيه حديث الآلهة . ومر على بعل مرقد ولبنانة عهد نشوة ومرح يُعجز الوصف .

ولكن المأساة ، مأساة الالم والشقاء ، كانت قد بدأت ساعة صار الحجر انساناً ولم يستطع ان يصير الهاً .

لم يهوّن على لبنانة حب بعل ولا الاعراس التي اقيمت لها وضجت بها مشارق الدنيا ومغاربها .

ولا روّح عنها ان الغوالي المخبآت في اقاصي السماء ، في مقاصير الشمس ومغاني القمر ، كانت تسفح كل يوم على قدميها.

ولا اسلاها وانساها ان الانغام كانت ترتفع بالتسابيح لها

كلما أطل وجهها السني على الدنيا .

ولا قلّل من همها ان الالاهات كنّ يحسدنها ، ويتمنين ان يحتللن من قلب بعل الجميل بعض مكانها فيه .

فقد كانت لبنانة تشعر في اعماقها ان ذل الحجر ما يزال عالقاً بها ، يشدها الى الارض حين تريد ان ترتفع ، وانها سجينة هذا الشكل الرائع المحسود لا تستطيع براحاً ولا انفلاتاً ولا هي تعرف هل تظل هي اياها ، ولا ما سيكون مصير ما تستشعر بذاتها من عقل واحساس وشوق ولذة والم اذا ما قدرت على الانعتاق .

وكانت تعرف ان بقاءها موقوف على انها تأكل وتشرب وتنام ، وتعرف ان لا حاجة للالاهات من اجل البقاء الى النوم ولا الى الطعام ولا الى الشراب ، وانهن انما يأكلن ويشربن وينمن ، متعة منهن ولذة ، وانهن لا يخفن لوافح البرد

ولا لواذع الحر .

وتعرف انها لا تعرف كيف تأتيها هذه المعرفة .

وكانت بسبب ذلك كله شقية تتساءل أهي اليوم افضل حالاً ، ام كانت افضل حالاً قبل ان يحركها الشوق ، يوم هي حجر لا يعقل ولا يحس ، ولا ينعم ولا يشقى ، ولا يفكر بمصير ، ولا يدرك انه موجود .

لا ، لن يقول لنا احد شيئاً عن الجهد الجبار الذي كان يقوم به بعل ليزيل من خاطر لبنانة هذه الهواجس ، وليجعل من حياتها نعيماً . ان شوقه هو الذي خلق مع الحياة هذه المتاعب عند احب مخلوقة يطمئن اليها قلبه ، وتقر بها عيناه .

فيا لعظم التبعات التي هي تبعاته !

غير ان لبنانة كانت تدرك من ناحيتها ان بعل لن يستطيع من اجلها بعدُ شيئاً ، وان خلاصها غير منوط به ، وان الشوق ،

شوقها هي هذه المرة ، شوقها الى الانعتاق والانفلات ، يقدر وحده على شق طريق الخلاص .

وذات ليلة وبعل يعزف ويغني لها اغنية الحب الخالد ، قامت الى رأس التلة واخذت تختطف الخطو اختطافاً ، فلا تلمس قدماها الارض الا لمساً رفيقاً كأنما هي تتوكأ على جناحي النغم .

واقبل الكون ينظر :

الدراري تتدلى لترى هذه الاعجوبة ،

والجبال تقترب وتحنو ،

والاغصان تترنح وتنعطف ،

والبحر يصغي خافت الموج ،

والسهل يشرئب ،

والليل يرق ،

وبنات لبنان وفتيانه يتقاطرون من الجوار في خشوع ورهبة

ونشوة وحنين.

وظلت لبنانة ترقص وترتفع ، ثم تهبط راقصة وترتفع ثانية ، حتى أقبل الفجر عليها وهي خصلة من نور ، تتعالى مسرعة الى ما وراء النجوم ، وبعل مرقد في اثرها يعزف ويغني ويرتفع .

وشيدت بنات لبنان بايديهن الناعمات القويات السخيات هيكلاً جباراً فوق التلة المقدسة ، اخذن حجارته من المقلع الذي نحت منه بعل تمثال لبنانة ، يعبدنه فيه ويعبدنها .

فهرس

صفحة

مقدمة ٧

النغم النائه ١٧

طليق وسجين ٢٧

الشاعر والشيطان ٣٧

ملكوت ٥٣

الكلب المجنّح ٦٥

العرعار ٨١

الرصد ٩٣

بعل مرقد ١٠٣

انتهى طبع هذا الكتاب على
مطابع الاتحاد ، بيروت
في اول آب ١٩٤٥ .

DATE DUE

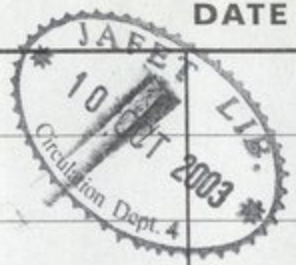

398.2:L11mA:c.1
لبكي، صلاح
من اعماق الجبل
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01024220

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT OMNIA MANEANT ABUNDANTIUS MANEANT
1866
الجامعة الأميركية في بيروت

398.2
L11mA

General Library

398.2
L11mA
c.1